طوقان « الثلاثاء الحمراء » ، بوصفها كانت فتحا جديدا وظاهرة تغير شعري ملموسة » . ثم تكشف عن مصدري التأثير في الشعر الفلسطيني: الواقعية والرومانسية ، لتعود الى تلخيص الفصول السابقة بما تسميه « اغراض الشعر الفلسطيني في مرحلة الانتداب » . ثم يفرد صفحة واحدة لما يسميه « الشكل والملامح الفلسطينية » .

يقود هذا المقترب النقدي الكتاب بأسره الى مأزق لا مخرج منه . فتحويل الشعر ، وهو بناء فني اساسا ، الى مجرد عنصر ايديولوجي وحيد الجانب ، يسحق الشعر ، ويحوله الى مجرد اطار ايديولوجي، لذلك يتحول النقد الى راصد خارجي، ويجري الفصل التعسفي بين الشكل والمضمون . يأتي هذا الفصل من منظور نقدي يرفض النقد العروضي والبياني ، يستبدله بدراسة الشعر من خلال موضوعاته . لكن هذه الموضوعات لا تستخرج من بنية القصيدة او من علاقاتها الاساسية ومناطق تركيزها ، بل تجري استعارة الموضوعات من اللغة السياسية المباشرة ، ويصبح النقد مجرد تنويع على هذه اللغة يسقط موضوعاتها الشعر ، فيقوم بنثره . وكأن الشكل الفني ، القصيدة ، ليس أكثر من عرض ، لجوهرها : مضمونها . هكذا تمحي الفوارق بين المستويات ، وتصبح اللغة ، وحيدة الجانب ، وتنحل دلالة اللغة الفنية الى دلالة واحدة ، هي الدلالة السياسية المباشرة.

ان هذا النقد الذي نوجهه للمقترب النقدي لكتاب الكيالي ، لا يقلل من قيمته ، كأثر تجميعي تحتاجه المكتبة الفلسطينية . لانه يقدم وثيقة كاملة للتيارات الايديولوجية التي حكمت الشعر الفلسطيني . غير ان نقدنا ، ينطلق من كون نقد الموضوعات ، يستطيع ان يتمحور داخل القصيدة، ليكشف بنيتها واسلوبيتها من خلال كشفه لموضوعاتها الداخلية . اذا اخذنا قصيدة السياب « انشودة المطر » . فاننا اذا تبعنا منهج الكيالي فاننا ندرسها من خلال محورين : ١ ــ مقدمة عامة للوضع السياسي والاقتصادي الذي كان يعانيه العراق . ٢ ــ ثم نثر أبيات القصيدة تحت عناوين : القرية ، الموت ، الجوع ، المطر ... هكذا يفتت جسد القصيدة، وتصبح نصا سياسيا ــ اجتماعيا ، كأي دراسة جيدة عن الوضع في العراق . اما اذا درسنا موضوعاتها الداخلية ، فاننا سنأخذ موضوعة الخصب ندمجها بالتضاد الذي تحفل به القصيدة ، لنتوقف عند الموت بوصفه النقطة المفصلية التي توحد الجدب بالمعاناة الجماعية . هكذا تصبح الموضوعات مدخلا الى دراسة بنية القصيدة وكشف اضافتها الفنية على الشعر العربي الحديث . قد يكون النموذج الذي نقترحه سهلا ، لان قصيدة السياب تنتمي الى مدرسة شعرية اخرى وتسهل مناقشتها بالمقاييس التي نقترح. لكن اذا اخذنا قصيدة طوقان « الثلاثاء الحمراء » او « الشهيد » فانه يمكن مناقشتها بالمقترب الذي نقترح . اذ تؤخذ الموضوعات الداخلية . الموت في « الشهيد » لتجري مناقشة تعبيراتها المختلفة حتى نصل الى بنية القصيدة .

ان نقد الموضوعات ، اذا لم يندرج داخل علاقات القصيدة الداخلية، فانه يقوم عمليا بالغاء المستوى الفني . يكتفي بنثر القصيدة واسقاط معان وحيدة الجانب على لغتها . حتى تصبح القصيدة مجرد كتابة ايديولوجية لا علاقة لها بالشكل الفني الذي هو سبب وجودها كقصيدة . لذلك يجب الفصل بدقة بين المستويات ، تمهيدا لاعادة ربطها ببعضها جدليا عند دراسة علاقتها بحقل الممارسة الاجتماعية . هذا الفصل الذي نقترحه هو الذي يميز الدراسة الادبية عن علم الاجتماع السياسي . فمادة الدراسة الادبية هي النص بمستوياته المختلفة . اما علم الاجتماع السياسي ، فهو علم مستقل ، قد يستخدم دراسة النصوص في سبيل تأكيد حقل دراسته الاساسية .

الشعر الفلسطيني والشعر العربي : لا يمكن دراسة الشعر الفلسطيني بمعزل عن الحركة الشعرية العربية . يأتي افتراضنا هذا ، من وحدة الزمن الثقافي والادبي العربي في العصر الحديث . « فالنهضة » بمركزيها مصر ولبنان ركزت على مفاهيم ابعاث ادبية طبعت الحركة الشعرية الحديثة بطابعها . هكذا لا يمكن تجزئة الحركة الشعرية العربية جغرافيا ، كما جرى تقسيم الوطن العربي جغرافيا . ان هذا يعني وحدة مفهومية للمدارس الادبية التي عصفت بالشعر الحديث . وهذا لا يمنع بالمقابل بروز خصوصيات لشعر الاقطار المختلفة نتيجة ظروف سياسية مختلفة . لكن هذه الخصائص لم تنتج مدارس فنية متميزة . نوعت ضمن تطور المدارس الادبية